ومع أن رسالة نبينا محمد ﷺ ناسخة للرسالات السابقة فإنها جاءت امتداداً لها، ومكملة لأحكامها، وقد مثل ذلك رسول الله ﷺ بقوله الذي رواه البخاري: «إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنىٰ بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هَلاَّ وُضِعَت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتم النبيين»[1].

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقولوا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة].

إن عربية القرآن لا تُـلْغِي موقع العرب المتميز في حملها، فقد اختار الله تعالى العرب للإسلام لخصائص طَبْعِيَّـة ومزايا خُلُقية ينفردون بها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد أثبت العرب الأولون حكمة هذا الاختيار بفهمهم العميق لطبيعة الإسلام، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه، وتجردهم النادر عن كل ما ينافيها، وحماستهم المنقطعة النظير في نشر الإسلام، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمته، ورفع شأنه، وأمانتهم الدقيقة في حفظ روحه ونفسيته، ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب والعقول لقبول عقيدته وثقافته.

لقد ربط الله بين العرب والإسلام إلى الأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عز للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله[2]، كما أن الله تعالى ربط بين القرآن والعربية، فالقرآن أكبر عوامل حياة هذه اللغة واستمرارها وانتشارها ووحدتها، وتظل اللغة العربية أساساً لتلاوة القرآن وفهمه وتفسير آياته، ومن ثمَّ فإن ما لا يحصى من المسلمين من غير العرب يحبون هذه اللغة الكريمة ويحرصون على تعلمها

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٦/٥٨٨.

(٢) ينظر: أبو الحسن الندوي: العرب والإسلام ص ٣ - ٤.

وإتقانها في القديم وفي الحديث، لأنها لغة القرآن، ولغة العبادة والدين.

وقد أحسن أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) التعبير عن العلاقة الخالدة بين العربية والقرآن بقوله: «مَن أَحبَّ الله تعالى أَحَبَّ رسولَهُ محمداً ﷺ ومَنْ أَحَبَّ الرسولَ العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُنِيَ بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خيرُ اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد...»[1].

(١) فقه اللغة ص١.

الفصل الثاني
تدوين القرآن الكريم

المبحث الأول
كتابة القرآن في زمن النبي ﷺ

أولاً ـ القرآنُ يَمْحُو أُميَّةَ ٱلعربِ:

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ والعرب تغلب عليهم الأمية، قال البلاذري وهو يتحدث عن الكتابة في مكة: «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب». وقال عن الكتابة في يثرب: إن الإسلام جاء وفيهم عِدَّةٌ يكتبون، وذكر منهم أحد عشر رجلاً[1]. ومن ثم قال ابن قتيبة: «وكانت الكتابة في العرب قليلاً»[2].

وقد وصف الله تعالى العرب في القرآن بالأميين، ووصف رسوله ﷺ بالنبي الأُمي، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]. وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . ﴿١٥٧﴾ . . . فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]، والتفسير الذي يذهب إليه أكثر المفسرين لكلمة الأمي هو أنه الذي لا يكتب ولا يقرأ، ومعنى كلمة الأميين هم الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، وقد وصف القرآن النبي ﷺ بالأمي لأنه لم يقرأ

---

(١) فتوح البلدان ص٤٧٧ و ٤٧٩.

(٢) المعارف ص١٣٠.

كتاباً، ولا تعلم الكتابة، ووصف العرب بالأميين لأن أكثرهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون[1].

وكان بزوغ شمس الإسلام في بلاد العرب إيذاناً بنهضة شاملة، كان أحد مظاهرها انتشار الكتابة واستخدامها في أغراض الحياة المتعددة على الرغم من قلة الكاتبين في بدء الدعوة، وصعوبة وسائل الكتابة، ولا يخفى على القارئ أن الأمر بالقراءة وذكر التعليم بالقلم في أول آيات أُنزلت على رسول الله ﷺ شيء ذو دلالة أكيدة على عناية الدعوة الجديدة بالكتابة والعلم، كما أن تسمية القرآن بالكتاب في آيات كثيرة أمر يدل على استشرافها لآفاق المستقبل الذي يُجمع فيه القرآن في كتاب.

كان رسول الله ﷺ أُميّاً، وكانت الأُميَّة في حقه فضيلة[2]، لأنها أدلَّ على صدق ما جاء به، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]، لكنه مع ذلك اعتنى بموضوع الكتابة كثيراً، واتخذ له كتَّاباً يكتبون له الوحي، ويكتبون رسائله وعهوده وما كان يأمر به، حتى بلغ عدد كُتَّابه من صحابته أكثر من أربعين كاتباً[3]. وشَجَّع على تعلم الكتابة، حتى إنه جعل فداء أسرى بدر ممن لم يكن له مال أن يُعَلِّمَ صبيان الأنصار الكتابة[4]، فَيُعَلِّمَ كلُّ واحدٍ عشرةً من المسلمين الكتابة[5]، فقلَّت الأمية بين العرب بعد انتشار الإسلام بينهم، وقد فسر ابن عباس كلمة (الكِتَاب) الواردة

---

(١) الطبري: جامع البيان ٩/ ٨٣ و ٢٨/ ٩٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٩٨ و ١٨/ ٩١، والبيضاوي: أنوار التنزيل ١/ ٣٦٢ و ٢/ ٤٩٢.

(٢) ينظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٦٠.

(٣) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٦٩، والهوريني: المطالع النصرية ص١٣.

(٤) ينظر: أبو عبيد: كتاب الأموال ص١٢٨، ومسند الإمام أحمد ١/ ٢٤٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٢٢.